قتال الصَّحابة رضي الله عنهم

ولم يَقلّ الطابع السياسى للقتال الذى حدث فى عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عما كان عليه فى عصر الرسول ﷺ ، بل لعله كان أشد وضوحًا وأبرز للعيان.

وفى عهد الصحابة حدثت أنواع من الحروب، تمثلت فى العديد من المعارك القتالية التى غطت، تقريبًا، كل عصر صدر الإسلام.. وأنواع الحروب هذه يمكن تصنيفها إلى:

١ ـ حروب ضد القبائل العربية التى «ارتدت» عن الإسلام قبل وفاة الرسول ﷺ.

٢ ـ وحروب ضد القبائل العربية التى «ارتدت» عن وحدة الدولة العربية الإسلامية عقب وفاة الرسول ﷺ، وعند تولى أبى بكر الخلافة.

٣ ـ وحروب الفتوحات التى وصلت بحدود الدولة إلى فارس والشام وإفريقية.

٤ ـ وحروب على بن أبى طالب ضد خصوم حكمه.. من طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، إلى معاوية بن أبى سفيان، وأهل الشام، إلى

الخوارج . . ثم حروب الخوارج ضد الأمويين، والتى امتدت فاتسعت لتشمل غيرهم من تيارات الفكر والسياسة فى الإسلام . .

فما طبيعة تلك الحروب؟ . . وما مكان «السياسة» فى ذلك القتال؟ . . وأين كان «الدين»؟ بمعنى : هل كانت هذه الحروب، أو بعضها، حروبًا دينية استهدف منها أصحابها فرض العقيدة الدينية على الخصوم؟ . .

لننظر حتى نعرف الجواب . .

١ ـ حروب الردة فى حياة الرسول ﷺ :

قبيل وفاة الرسول ﷺ ، وعند وفاته «ارتدت» عدة قبائل عربية عن الإسلام، فأعلنت رفض سلطة الدولة العربية الإسلامية التى توحدت تحت حكم الرسول ﷺ بعد فتوحات المسلمين وغزواتهم فى شبه الجزيرة، وأعلنت تلك القبائل الاستقلال عن دولة «المدينة» . . وكان هذا جانبًا سياسيًا، وليس دينيًا، واضحًا فى حركة «الردة» هذه . . ولكنها كانت «ردة» ضد «دولة» يحكمها «نبي»، فزعم قادة هذه «الردة» أنهم هم الآخرون «أنبياء»! . . فعرف التاريخ ذلك العدد من «المتنبئين»! . .

* الأسود العنسى (عبهلة) بن كعب بن عوف العنسى . . وهو الملقب «بذى الخمار» . . كان كاهنا، وهو أول المرتدين، بدأ عصيانه من «كهف خبان»، باليمن، ومعه «عنس»، وهم بطن من قبيلة «مذحج»، فاستولى على المنطقة الممتدة من صنعاء إلى عُمان إلى الطائف . . وكانت ردته سنة

١١هـ، قبل وفاة الرسول ﷺ، ولقد حاربه المسلمون، وقتلوه غيلة، فانهزم انصاره قبل وفاة الرسول ﷺ بليلة واحدة، فلم تدم ردته وعصيانه أكثر من ثلاثة أشهر!..

* وطليحة بن خويلد الأسدى.. من أسد خزيمة.. بدأت ردته وادعاؤه للنبوة فى حياة الرسول ﷺ، فقاتله المسلمون حتى ضعفت شوكته، ثم عادت فقويت عقب وفاة الرسول ﷺ.. وكان أكثر أتباعه من قبائل أسد، وغطفان، وطئ، ثم عبس، وذبيان.. وبعد هزيمته النهائية فر إلى الشام، ثم عاد فآمن بالإسلام!..

* ومسيلمة بن حبيب (الكذاب).. وكان كاهنا فى قبيلة كبيرة تتدين بالنصرانية هى «بنو حنيفة»، تقطن اليمامة، بين نجد والأحقاف، فى موطن أقرب إلى نجد من الأحقاف.. ولقد بدأت ردته قبل وفاة الرسول ﷺ، واستمرت بعدها، حتى قضى عليها المسلمون.

* وسجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان.. من بنى تغلب.. وكانت عالمة راسخة فى الديانة النصرانية التى كانت تتدين بها قبيلتها.. ولقد زحفت على أرض بنى تميم فتبعها منهم البعض، ثم سارت إلى «مسيلمة» فحالفته، وقيل تزوجته.. وبعد هزيمتهم انسحبت ـ قيل إلى البصرة، حيث أسلمت على عهد «معاوية بن أبى سفيان»، وقيل إلى الجزيرة، حيث ماتت منسية عند أخوالها!..

أولئك هم أبرز «المتنبئين» الذين شقوا عصا الطاعة لسلطة دولة «المدينة» وتمردوا على الوحدة التى أقامتها فى شبه الجزيرة أول دولة عربية أقامها المسلمون.

وفى الحديث عن طبيعة هذه «الردة» وحربها وقتالها . . أدينية كانت ضد «دين» الإسلام؟ أم سياسية كانت ضد «دولة» الإسلام؟ . . فى الحديث عن هذه الطبيعة، التى صبغت ذلك القتال، لا بد من أن نلحظ ونعى عدداً من الحقائق، أهمها:

(أ) أن عقيدة «التوحيد»، فى صورتها التى بلغت الذروة نقاء، كما بشر بها الإسلام، لم يذكر التاريخ أن أحداً من هؤلاء «المتنبئين» قد نالها بالنقص أو الإنكار أو التحريف . .

(ب) أن «نبوة» محمد ﷺ، لم يجحدها أحد من هؤلاء «المتنبئين».

وكل الذى ذكرته مصادر تاريخنا عن هؤلاء «المتنبئين»، فى هذا الباب، أنهم أنكروا أن يكون محمد هو النبى الوحيد . . لقد أرادوه نبيًا لقريش، وأراد كل منهم نفسه «نبيًا» لقبيلته ومن غلبت عليه من صغار القبائل وضعاف الأفخاذ والبطون! . .

(جـ) أن قضية «الوحى»، والاعتقاد بوجوده رباطًا يصل الإله الواحد بالنبى، لم تكن موضع إنكار من هؤلاء «المتنبئين» . . فلقد زعم كلٌ منهم أنه يوحى إليه، وألقى إلى أتباعه بشىء من السجع الذى زعموا أنه ثمرة الوحى، وهو سجع بقى القليل منه وتناثر فى مصادر التاريخ . . فهم لم ينكروا «الوحى»، وإنما أنكروا تفرد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ باستقباله! . .

إذن . . فنحن هنا أمام تمردات قبلية، تشق الوحدة التى أقامتها الدولة العربية الإسلامية الوليدة، التى يحكمها نبى قرشى . . فهى انشقاقات ضد الوحدة . . ولأن دولة الوحدة هذه يقودها نبى، فلقد زعم قادة هذه الانشقاقات أنهم هم الآخرون «أنبياء»! . . وكان لا بد من تحريفات يحدثها هؤلاء «المتنبئون» فى الدين الذى وحد العرب، طلبًا للتمايز الذى يتطلبه التمرد والارتداد والانشقاق! . . أى أننا نلمح الطابع السياسى، غير خفى، خلف تلك الغلالة الشفافة، بل المهترئة، التى زعموها «نبوة» لهؤلاء المرتدين! . .

ولنا أن نسأل: هل كان باستطاعة واحد من هؤلاء «المتنبئين» أن يقنع عاقلاً من قومه، أو من غير قومه، بأن سجعه السقيم يطاول القرآن الكريم؟! . . وهل كان فى وسع عقلاء العرب وحكمائهم أن يضعوا إنسانًا أو فكرًا فى كفة ميزان ثم يزعموا أنها يمكن أن توازى الكفة التى نهض عليها محمد بن عبد الله، ودين الإسلام؟! . . لا نعتقد أن ذلك كان ممكنًا خاصة وأن الرسول ﷺ، كان لا يزال حيًا يشع سلوكه على ما حول «المدينة»، وتنهض معجزته ـ القرآن ـ بسحر إعجازها، وهى لأولئك العرب البلغاء أكثر سحرًا وأفعل إعجازًا منها لغير البلغاء من أمثال الذين أتوا بعدهم من الأجيال! . .

إذن . . لماذا كان انتشار «الردة» هكذا سريعًا، وشبه شامل؟! . . فى اعتقادنا أنه يصعب تصورها ردة عن «الدين»؛ لأن عظمته وعطاءه

يتضاءل دونهما كل بديل . . لكن الأثرة السياسية ، والعصبية القبلية ، قد دعت القبائل الكبرى إلى أن تتصدى «لدولة» الإسلام ، التى حسبوها «دولة قريش» ، فأرادوا اقتسام «الميزة السياسية» ، فلما وجدوها قد ارتبطت بظهور «النبوة» فى قريش ، أرادوا اقتسام «ميزة النبوة» أيضًا ، فكان «التنبؤ» الذى زعموه لأنفسهم الستار الذى غلفوا به الطمع فى الدنيا ، والرغبة فى تفكك الدولة ، والطموح إلى العودة ـ فى السياسة ـ إلى ما قبل الوحدة السياسية التى صنعها الرسول ﷺ والمسلمون لعرب شبه الجزيرة . . فهى إذن «ردة سياسية» ، حاولت تبرير نفسها وستر عوراتها برداء مهترئ من «التنبؤ» والدين ! . . ومن ثم فإن الطابع السياسى والطبيعة السياسية لما دار فى حروبها من قتال ، أمر لا تخطئه عين باحث يحترم العقل عندما ينظر ويبحث عن طبيعة القتال فى هذه الحروب .

ولعل مما يزيد أمر الطابع السياسى لقتال هذه الحروب وضوحًا ـ إن كانت لا تزال بحاجة إلى مزيد من الوضوح ـ أن نتأمل فى عدد من النصوص والمأثورات التى حفظها لنا التاريخ عن أحداث تلك الحروب وأقوال أقطابها .

* فالأسود العنسى (عبهلة) : عندما أعلن عصيانه وأظهر دعوته باليمن كتب إلى قادة المسلمين وعمالهم كتابًا . . وهو فى هذا الكتاب لم يدعهم إلى ترك «الدين» الإسلامى ، والدخول فى دين جديد ، كما تكون عادة الأنبياء الجدد ، وإنما طلب منهم أن يظلوا على دينهم وعقيدتهم . .

فقط طلب إليهم أن يتركوا لأهل اليمن أرضهم وأموالهم! . . لقد قال لهم فى كتابه إليهم: «أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به. وأنتم على ما أنتم عليه»؟! . .

فهو إذن، يطلب إلى القرشيين، أو ممثلى الدولة التى يحكمها نبى قرشى، يطلب إلى هؤلاء الذين «وردوا» إلى اليمن من خارجها، أن يدعوا أرض اليمن ومالها لأهلها، فهم أولى به. . إنه يطلب هدم وحدة الدولة، ويرتد عن «التوحيد السياسى»، الذى كان وجهًا لعملة واحدة يمثل «التوحيد الدينى» وجهها الآخر. . فهى «ردة» فى السياسة، أكثر مما هى «ردة» فى الدين!

* و«متنبئ» بنى حنيفة: «مسيلمة الكذاب»: يعلن، صراحة، فى سجعه الذى ألقى به إلى قومه أنه يبشر بفكر سياسى يبغى من ورائه اقتسام الأرض والدولة بين «بنى حنيفة» وبين «قريش»! . . فهو يريد ألا تستأثر قريش بالأرض والدولة. . فلما لم تستجب له أعلن العصيان وارتد عن «الوحدة الإدارية والتوحيد السياسى». . يقول مخاطبًا الضفادع: «يا ضفدع، نقى نقى، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»! . .

وعندما عقد حلفه مع «المتنبئة» «سجاح بنت الحارث»، عرض عليها أن يكون لقومها نصيب قريش من الأرض والدولة، فقال لها: «لنا نصف

الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت!، وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلت»!.

ولما ذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة وبنى حنيفة سألهم: «يا بنى حنيفة، ما تقولون؟.. قالوا: نقول: منا نبى ومنكم نبى»!.

فقسمة النبوة، هنا، هى التعبير عن قسمة الأرض والسلطة، التى أعلنوا عنها «فى سجع الكذاب»!. وقول بنى حنيفة هذا لخالد بن الوليد يدل على أن هذه القضية لم يكن وضوحها وقفًا على فكر مسيلمة وخاصته، بل كان وضوحها متعديًا لنطاق الخاصة والقواد.. بل لقد رأيناه من الوضوح عند البعض إلى الحد الذى فضح فكرة ودعوى «نبوة» هؤلاء «المتنبئين» حتى عند الأنصار والأتباع والأعوان!.. فهذا «طلحة النمرى» يذهب للقاء مسيلمة فى «اليمامة» فيسأل عنه نفرًا من بنى حنيفة:

ـ أين مسيلمة؟

ـ مه ـ [اصمت]! ـ رسول الله!..

ـ لا.. حتى أراه!.

فلما أن لقى طلحة النمرى مسيلمة دار بينهما هذا الحوار الذى بدأه طلحة:

ـ أنت مسيلمة؟..

ـ نعم..

ـ من يأتيك؟ . .

ـ رحمن . .

ـ أفى نور؟ أو فى ظلمة؟ . .

ـ فى ظلمة . .

ـ أشهد أنك كذاب، وأن «محمداً» صادق. ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر؟! . .

فهى إذن السياسة، وهى إذن الطموحات القبلية المتعصبة فى اقتسام الأرض والمال والسلطة والدولة. . وما غلالة «النبوة والتنبؤ» إلا الستار الذى حاول البعض به ستر الحقيقة عن العوام. . وطلحة النمرى يفضح المقاصد عندما يعلن صدق نبوة محمد، وكذب تنبؤ مسيلمة، ولكن العصبية القبلية والأهداف السياسية تجعله يقف مع كذاب «ربيعة» لا مع صادق «مضر»؛ لأن دنياه مع هذا الكذاب، وهو قد قطع صلتها بالدين!.

هكذا تشهد المأثورات لما شهد به التحليل العقلى من وضوح الطابع السياسى للقتال الذى شهدته الحروب التى شبت بين الصحابة وبين هؤلاء «المتنبئين»[1]! . .

(١) انظر أخبار حروب الردة هذه فى [تاريخ الطبرى] جـ ٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٨، ٢٨٦ ـ ٢٨٨ ـ ٣٠٠. طبعة دار المعارف. القاهرة. و[نهاية الأرب] للنويرى جـ ١٨ ص ٧٢ ـ ٧٣ وجـ ١٩ ص ٤٩ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧٤ ـ ٧٦ ـ ٧٨ ـ ٨٠.

ويشهد لهذه الحقيقة أيضًا أن حركات «الردة»، التى قامت بعد وفاة الرسول ﷺ، قد غابت منها ظاهرة «التنبؤ» فازداد وضوح طابعها السياسى، وتعرت أهدافها تمامًا من تلك الغلالة «الدينية»؛ لأن غياب صفة «النبوة» عن الخليفة الذى تولى رئاسة الدولة بالمدينة أسقط ضرورة ادعاء «النبوة» لمن يشق عصا وحدة هذه الدولة.

لقد كان «التنبؤ» سلاحًا تسلح به المرتدون على وحدة الدولة؛ لأن قائد هذه الدولة الواحدة كان نبيًا، إلى جانب كونه حاكمًا سياسيًا، فأما وقد انتقل النبى ﷺ، إلى جوار ربه، وتولى الحكم خليفة، غير نبى، فلم تعد هناك ضرورة لادعاء المرتدين على وحدة هذه الدولة للنبوة.. ومن ثم فلقد وضحت طبيعة الصراع وفلسفته، وغدت القسمة السياسية للقتال والجهاد الحربى واضحة للعيان كل الوضوح.

٢ـ حروب الردة بعد الرسول ﷺ

تجلت عبقرية الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى السياسة، عند وفاة الرسول ﷺ، أول ما تجلت فى سرعة اختيارهم لأبى بكر الصديق [٥١ ق. هـ ـ ١٣ هـ: ٥٧٣ ـ ٦٣٤م] خليفة للرسول فى السلطة الزمنية وحاكمًا أعلى للدولة العربية الإسلامية، فلقد حسموا خلاف الأنصار للمهاجرين حول هذا المنصب فى «سقيفة بنى ساعدة»، وتمت البيعة لأبى بكر، قبل أن يدفن جثمان الرسول ﷺ.

ولقد وضحت ميزات هذا الحسم السريع عندما أسرعت الأنباء ترد إلى «المدينة» ـ عاصمة الدولة ـ بأن قبائل العرب قد انتشرت فيها «الردة» انتشار النار فى الهشيم! . . ولقد تبع هذه الأنباء حضور وفود من هذه القبائل إلى المدينة تعلن لقيادة الدولة هذا الموقف الجديد! . . جاءوا يفاوضون، فإذا هم يعلنون بقاءهم على إسلامهم وإيمانهم «بالدين» ولكن مع «الارتداد» عن «الوحدة السياسية والاقتصادية للدولة» . . فهم باقون على عبادة الله وحده، وعلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ، يقيمون الصلاة، ويصومون، ويحجون، أما الزكاة فإنهم سيصرفونها فى قومهم، أى محليّا، بين من يستحقونها فى مضارب خيامهم القبلية، ولن يدفعوا منها شيئا إلى الخليفة الحاكم بالمدينة؛ لأنهم لا يعترفون له بما كانوا يعترفون به للرسول من السلطة والسلطان! . .

حدث ذلك من عرب شبه الجزيرة، أو قل: من أعرابها، ولم يبق خاضعًا لسلطان دولة الخلافة إلا الحواضر: المدينة، ومكة والطائف . . أى لم يبق مع العاصمة إلا قبيلتا: «قريش» و«ثقيف»؟! . . وبعبارة «النويري» فإنه «لما قُبضَ الرسول ﷺ، ارتدت العرب كلها إلا قريشًا وثقيفًا، وأتت وفود العرب إلى أبى بكر مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة»[1]؟! . .

ولكن الخليفة رفض أن يجيب وفود هذه القبائل إلى ما يطلبون، واستمسك بالوحدة السياسية للدولة، باعتبارها الوجه الثانى لعملة

(١) [نهاية الأرب] جـ١٩ ص ٦١ .

واحدة يحمل وجهها الآخر عقيدة التوحيد فى الدين، بل لعله رأى أن الحفاظ على الوحدة السياسية أدخل فى اختصاصه، وألزم لمهمته، فهو خليفة وحاكم سياسى للدولة، وليس بنبى أو رسول!.. ومن ثم فلقد صمم على قتال هؤلاء الذين «ارتدوا» عن الوحدة السياسية، على الرغم من اعتراض عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م]، الذى استعظم، فى البداية، محاربة قوم لم يخلعوا التوحيد فى الدين.. لقد نفذت بصيرة أبى بكر وتجلت عبقريته فى قراره التاريخى الذى أوجزه فى قولته الشهيرة: «والله لو منعونى عقالاً[1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليها»!.. فهو لن يحاربهم حربًا دينية؛ لأنهم على التوحيد الدينى والإيمان بدين الإسلام قائمون ومستمرون، يصومون ويصلون ويحجون، بل ويزكون، ولكنهم يصرفون زكاتهم فى مضارب قبائلهم، ويمتنعون عن دفعها إلى عاصمة الخلافة وبيت مال الدولة.. فلا وجه إذن لمحاربتهم الحرب الدينية.. وإنما سيحاربهم حربًا سياسية، تعيد للدولة وحدتها، وتضمن لهذه الوحدة النمو والتدعيم.

ولقد كان تسليم الزكاة لبيت مال دولة الخلافة، بالمدينة، هو المعيار والرمز لبقاء وحدة الدولة، التى رآها أبو بكر الصديق، بعبقرية أبصرت المستقبل كله لحظة اتخاذه لهذا القرار، رآها الضمان لمجد العرب وتحضرهم، بل والضمان لبقاء عقيدة التوحيد وانتشارها، أى لبقاء الإسلام، كدين، وحتى لا يذهب كما ذهبت مذاهب ودعوات عفا عليها الزمن؛ لأنها لم تجد الدولة التى تضمن لها الانتشار فالبقاء!..

(١) العقال ـ بكسر العين ـ زكاة العام.

لقد نهض أبو بكر الصديق فحصن المدينة حتى لا تقتحمها القبائل المرتدة، بعد أن رفض الاستجابة لمطلب وفودها. . ثم خرج إلى حيث عسكر بالمسلمين، الذين تأهبوا لحرب فاصلة يعيدون بها الوحدة للدولة، وكان معسكرهم فى «ذى القصة». . وهناك عقد لأمراء الحرب ألوية القتال، ووجههم إلى ميادينه. . عقد لهم أحد عشر لواء:

١ ـ خالد بن الوليد. . لقتال طليحة الأسدى. . ثم لقتال مالك بن نويرة، بالبطاح. . إن هو استمر على عصيانه.

٢ ـ وعكرمة بن أبى جهل. . لقتال مسيلمة الكذاب، باليمامة. .

٣ ـ والمهاجر بن أمية. . لقتال جنود الأسود العنسى. . ولمعونة الأبناء على قيس بن المشكوح ومن معه من أهل اليمن. . ثم لقتال «كندة» بحضرموت.

٤ ـ وخالد بن سعيد بن العاص. . لقتال أهل الحمقتين، من مشارف الشام. .

٥ ـ وعمرو بن العاص. . لقتال جماع «قضاعة» و«وديعة» و«الحارث».

٦ ـ وحذيفة بن محصن الغلفانى. . لقتال أهل دبا. .

٧ ـ وابن هرثمة. . لقتال «مهرة».

٨ ـ وشرحبيل بن حسنة. . لقتال «قضاعة»، بعد إعانة عكرمة بن أبى جهل فى قتال أهل اليمامة.

٩ ـ ومعن بن حاجز . . وقيل طريفة بن حاجز ـ لقتال «سليم»، ومن معهم من «هوازن».

١٠ ـ وسويد بن مقرن . . لقتال «تهامة»، باليمن.

١١ ـ والعلاء بن الحضرمى . . لقتال أهل البحرين[١] . .

ولقد كانت وصية أبى بكر للجند المحاربين وعهده لأمراء هذه الحرب دليلاً آخر على طابعها السياسى، فهم ذاهبون لقتال قبائل مسلمة، قد «ارتدت» عن الوحدة السياسية للدولة، ولم ترتد عن التوحيد الإلهى فى الدين . . ومن ثم فلا بد من التمييز بين الذين ظلوا على إسلامهم وبين الذين خلعوا الدين مع خلعهم وحدة الدولة السياسية . . إذ محال أن نجعل المسلمين كالمشركين! . . قال الخليفة الصديق أبو بكر لجنوده «إذا غشيتم داراً من دور الناس فسمعتم أذانًا للصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم : ماذا نقموا؟! . . وإن لم تسمعوا أذانًا فشنوا الغارة»[٢]! . .

كما تشهد حرب خالد بن الوليد لمالك بن نويرة، وقتله له، للطابع السياسى ـ وليس الدينى ـ لهذه الحرب، وتؤكد على أنها كانت «ردة» عن «الوحدة السياسية للدولة»، ولم تكن، بحال من الأحوال، «ردة» عن «دين» الإسلام.

---

(١) المصدر السابق. جـ ١٩ ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) [تاريخ الطبرى] جـ ٣ ص ٢٧٩.

* فمالك بن نويرة قد فض حلفه مع سجاح بنت الحارث ـ التى انصرفت إلى أرض الجزيرة ـ وهو حلف استهدف من ورائه تحقيق أغراض قبلية، منها ثأر كان يطلبه من «بنى ضبة».. ولم يكن حلفًا تنتقص طبيعته من إيمانه بدين الإسلام.

* وهو قد جمع الزكاة وميزها، ولكنه رفض تسليمها لبيت مال دولة الخلافة بالمدينة، وأرجأ التصرف فيها، ثم أصبح متحيراً من أمره فيها، وخاصة بعد فض حلفه مع سجاح بنت الحارث[1].. وله فى ذلك شعر يفصح عن إيمانه بدين الإسلام، وعن التزامه التعبد بالزكاة، كركن من أركان الإسلام، لكن مع التردد والحيرة فى مصرفها.. هل يكون في فقراء قومه؟ أو إلى بيت مال الدولة بالمدينة؟.. يقول مالك:

وقال رجال: سدد اليوم مالك ... وقال رجال: مالك لم يسدد
فقلت: دعونى لا أبا لأبيكم ... فلم أخط رأيًا فى المقام ولا الندى
وقلت: خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجئ به غدى
فدونكموها، إنما هى مالكم ... مصورة أخلاقها لم تجدد
سأجعل نفسى دون ما تحذرونه ... وأرهنكم يومًا بما قلته يدى
فإن قام بالأمر المجدد قائم ... أطعنا، وقلنا: الدين دين محمد[2]

(١) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٢٧٦.
(٢) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ ١٧ ص ٢٠٥. طبعة الحلبى. القاهرة.

* وعندما هم خالد بن الوليد بقتال مالك بن نويرة وقومه، عارضه فى ذلك صحابة أجلاء، كانوا ساعتئذ جنوداً فى جيشه، فلما لم يستجب لرأيهم رفضوا القتال معه ضد مالك وقومه؛ لأنهم - مثلهم - مسلمون!.. وكما يقول الطبرى: فلقد «ترددت الأنصار على خالد، وتخلفت عنه، وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا»[1]؟!..

* ولقد شهد بإسلام مالك بن نويرة وقومه، وبظلم خالد بن الوليد لهم، إذ قاتلهم وقَتل منهم، شهد بذلك كثير من شهود تلك الحرب.. ومن هؤلاء الشهود الصحابى الأنصارى أبو قتادة الحارث بن ربعى - الملقب بفارس رسول الله[2] ﷺ - فقال: إنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل! [أى أفزعوهم ليلاً].. فأخذ القوم السلاح؛ ليدفعوا به عن أنفسهم هذا الذى أفزعهم ليلاً.. قال أبو قتادة:

- «فقلنا: إنا المسلمون!..

- فقالوا: ونحن المسلمون!..

- قلنا: فما بال السلاح معكم؟!..

- قالوا: وما بال السلاح معكم؟!..

- قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح!..

---

(١) [تاريخ الطبرى] جـ ٣ ص ٢٧٦.

(٢) انظر ترجمته فى [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] لابن الأثير.

قال أبو قتادة: فوضعوها، ثم صلينا وصلوا.. ؟!..

ومع ذلك حاربهم خالد بن الوليد!..

* ولقد رأينا عمر بن الخطاب يتحدث إلى أبى بكر الصديق فى هذا الأمر، طالبًا القصاص لمالك بن نويرة من خالد بن الوليد، وقائلاً عبارته الشهيرة: «عدو الله! عدا على امرئ مسلم فقتله، ثم نزا[1] على امرأته»[2]!..

وأيضًا.. يشهد للطابع السياسى لهذه الحرب ـ حرب القبائل التى خلعت وحدة الدولة ولم تخلع توحيد الإسلام الدين ـ شعر الخطيل بن أوس ـ أخى الحطيئة ـ الذى يصور معنى منع هذه القبائل تسليم الزكاة لحكومة أبى بكر الصديق، فى المدينة، وفحوى مطالب وفودها التى وفدت إلى المدينة، تقر بالإسلام الدين وتطلب فك ارتباطها بوحدة الدولة السياسية، وكيف أن ذلك كان يعنى رفض هذه القبائل لسلطة خليفة قرشى لم يستشاروا فى اختياره، دون أن يعنى رفض الدين الإسلامى؛ لأنهم قد دانوا له وتدينوا به بالحرية والاختيار.. يقول الخطيل بن أوس:

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر؟!
أيورثها بكرًا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

(١) نزا: وثب. ومن الذكر على الأنثى: سافدها ووطئها.. وأصلها فى سفاد ذى الحافر والظلف والسباع!.

(٢) [تاريخ الطبرى] جـ ٣ ص ٢٧٦.

فــهــلا رددتم وفــدنا بإجــابة وهلا حــسـبـتم منه راعـيـة البكر
فــإذا الذى ســألوكم فــمنعــتم لكالتمر أو أحلى لحلف بنى فهر[1]!

ولقد كان وراء منع هذه القبائل تسليم الزكاة لحكومة أبى بكر الصديق تخريجًا استخرجوه لأنفسهم، وتأويلاً تأولوا به قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقالوا: إنهم كانوا يدفعون الزكاة - [الصدقات] - إلى من كانت صلاته [سكنٌ لهم] - وهو الرسول ﷺ - وليس كذلك حال أبى بكر الصديق ولا حال غيره، فليس عليهم - وفق هذا التأويل - أن يدفعوا صدقاتهم إلى من لايستطيع أن تكون صلاته لهم سكنًا! . . ذلك كان تأويلهم. . وهو شاهد آخر على إيمانهم بالدين، ومن ثم على الطبيعة السياسية للحرب التى اشتهرت فى تاريخنا باسم «حروب الردة» والتى وصف هذا الطرف من أطرافها بوصف «المرتدين»! . .

لكن. . من الحق ومن الواجب أن نسأل: إذا كان الأمر كذلك، فلم اشتهر وصف هذه القبائل المسلمة بصفة «الردة»، وسموا «بالمرتدين»، هكذا بإطلاق، ودون التمييز بين «الردة» عن الدين، بالكفر، وبين «الردة» عن الوحدة السياسية للدولة، بالانفصال السياسى والانشقاق الإدارى؟! . .

من الحق أن نسأل هذا السؤال. . ومن حسن الحظ أنه قد طرح فى تراثنا القديم، وأجاب عليه عدد من أئمة الفكر وأعلام المؤرخين إجابة

(١) [شرح نهج البلاغة] جـ١٣ ص ٢١٠.

نزكيها ونتفق مع مضمونها كل الاتفاق. . لقد طرح ابن أبى الحديد [٥٨٦ ـ ٦٥٥هـ ١١٩٠ ـ ١٢٥٧م] هذا السؤال، وأجاب عليه. . قال: «. . لم قلت: إن الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين؟!. . فإن المرتد من ينكر دين الإسلام، بعد أن قد تدين به، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصل دين الإسلام، وإنما تأولوا وأخطأوا؛ لأنهم تأولوا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. فقالوا: إنما ندفع زكاة أموالنا إلى من صلاته سكن لنا، ولم يبق بعدوفاة النبى ﷺ من هو بهذه الصفة، فسقط عنا وجوب الزكاة. وليس هذا من الردة فى شىء، وإنما سماهم الصحابة أهل الردة على سبيل المجاز، إعظامًا لما قالوه وتأولوه»[1]!. .

فهل بعد ذلك شك في الطابع السياسى لقتال تلك الحرب؟. . وفى الطبيعة السياسية لذلك الصراع العنيف؟. . وهل يستطيع لفظ «الردة» أن يحجب هذه الطبيعة السياسية عن أعين الباحث وعقل المتأمل ولب المفكر فى ذلك الصراع؟. .

لا نعتقد. . بل لا نظن!. .

٣ ـ حروب الفتوحات

أما حروب الفتوحات التى نهضت بها الدولة العربية الإسلامية، وخاصة على عهد عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ ـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م]

(١) [شرح نهج البلاغة] جـ ١٣ ص ١٨٧.

فإن وضوح طابعها السياسى، وانتفاء شبهة الحرب الدينية عنها، لايحتاج إلى تفصيل حديث. . فهى فتوحات لم تفرض عقيدة الإسلام، وإنما امتدت بحدود الدولة السياسية إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية، وهى قد تركت لأهالى البلاد المفتوحة حريتهم فى الاعتقاد، مسيحيين كانوا أم يهودًا أم مجوسًا، بل لقد أتاحت لهم من الحريات الاعتقادية والدينية فوق ما كانوا يتمتعون به قبل هذه الفتوحات، فقد فرضت على بعضهم ضريبة زهيدة مقابل إعفائهم من ضريبة الجندية والقتال، لأمر اقتضاه أمن الدولة الناشئة وطبيعة التكوين العربى لجيشها المقاتل ـ ومن شارك من أبناء البلاد المفتوحة ـ وهو على دينه ـ فى القتال سقطت عنه هذه الجزية [ضريبة الجندية والقتال][1].

وفتوحات تترك أهل البلاد المفتوحة على عقائدهم الدينية. . وقتال لا يدخل المهزوم فى دين المنتصر هو أدخل في السياسة إلى الحد الذى لا يحتاج فى إثبات طبيعته هذه إلى دليل، وأبعد عن القتال الدينى بُعْد الإكراه والقسر عن أن يكون وسيلة للتصديق القلبى والاقتناع الحر واليقين الباطنى الذى لا يرقبه ولا يراقبه سوى علام الغيوب!. .

ويؤكد الطابع السياسى لقتال حرب الفتوحات هذه ذلك الطابع التحريرى والمضمون الوطنى الذى برز كمحتوى لعملياتها ومعاركها. . فالصراع الحضارى العنيف كان قائمًا، وممتدًا امتدادًا تاريخيًا بين الغرب

(١) انظر كتابنا [الإسلام والوحدة القومية] ص ٨٩ ـ ١٠٦. طبعة بيروت ـ الثانية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٩م.

والشرق منذ قرون، وكانت «روما» فيه طرفًا، و«فارس» هى الطرف الثانى، وحروبهما، بما أسفرت عنه من هزائم وانتصارات، هى المد والجزر الذى تمثلت فيه علاقات القوى بين الفريقين. . وكانت فتوحات الإسكندر المقدونى [٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق. م] قد حسمت إحدى جولات هذا الصراع لحساب الغرب والبيزنطيين، وأصبح الفرس عاجزين عن قيادة الشرق فى هذا الصراع، وعن النهوض بعبء تحرير الشام ومصر والمغرب من سيطرة الروم، فكان ظهور «الإسلام»، بما أحدث من آثار سياسية، وبما أقام من دولة فتية، وبما أنجز من وحدة قومية حولت القبائل العربية إلي جيش باسل في القتال. . كان ذلك الظهور للإسلام إيذانًا بتولى الجماعة العربية زمام القيادة للشرق فى هذا الصراع القديم المتجدد، ومن ثم كانت تلك الفتوحات العربية حركة تحرير لهذه البلاد المفتوحة من حاميات الروم البيزنطيين، أعان العرب المسلمين فيها وساعدهم عليها أهل البلاد الأصليون، مع احتفاظهم بدياناتهم القديمة، بل مع اشتراكهم مع الروم البيزنطيين فى الإيمان بدين المسيح! . .

وعلى الجانب الشرقى كان فتح العراق العربى تحريرًا له من سيطرة فارسية ظالمة، وكان فتح فارس ذاتها إنهاء لنظام اجتماعى فاسد، غدا فساده ثغرة فى جدار الشرق مكنت منه الغزاة، وغدت مظالمه الاجتماعية والعرقية قيدًا يحول دون أهل فارس ودون الإبداع الحضاري الذى أهلهم له التاريخ والتراث الذى يملكون.

فهى حرب تحرير. . وهو قتال سياسى، اقتضته شئون الدولة وضرورات الصراع العالمى بين الشرق الفتى والغرب المتقهقر. .

وليس فيه من الدين والحرب الدينية سوى الأعلام والرايات التى حارب تحت ظلالها المقاتلون! . .

٤ ـ الحروب بين المسلمين

استخدم المسلمون العنف، والعنف المسلح فى صراعاتهم الداخلية، أول ما استخدموه، فى ثورتهم التى أنهت عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان [٤٧ ق. هـ ـ ٣٥ هـ ـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م]، وهى الثورة التى انتهت بقتله ـ عليه رضوان الله! . . ـ ولم يقل أحد، يعتد برأيه من مفكرى الإسلام، إن طرفًا من أطراف هذا الصراع العنيف قد كفر بدين الإسلام، ولا إن هذا الصراع كان صراعًا دينيًا يستهدف منه كل طرف فرض عقيدته الدينية على الطرف الآخر، بل لقد أطبق الإجماع على أنه كان صراعًا سياسيًا واجتماعيًا، استهدف الثوار منه تغيير المظالم التى حدثت، وعزل الولاة الذين استبدوا، وخلع الخليفة الذى عجز عن تنفيذ مطالب الثوار.

وفى عهد الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب [٢٣ ق. هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م] حدثت أول الحروب الحقيقية والكبرى التى كان طرفاها من المسلمين! . . ففى موقعة «الجمل» كان على وأنصاره فى جانب، وطلحة بن عبيد الله [٢٨ ق. هـ ـ ٣٦هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] والزبير بن العوام [٢٨ ق. هـ ـ ٧٦هـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] ـ وهما من العشرة الذين تكونت منهم [هيئة المهاجرين الأولين] ـ وأم المؤمنين عائشة [٩ ق. هـ ـ ٥٨ هـ ٦١٣ ـ ٦٧٨م] وأنصارهم فى الجانب الآخر. . ولم يقل أحد يعتد برأيه

من مفكرى الإسلام أن طرفًا من أطراف هذه الحرب قد كفر بالله، أو بدَّل دينه. . بل لقد أجمعوا على الطبيعة السياسية لهذا القتال، فهو قتال على منصب الخلافة، وعلى وجهات النظر التى يراها كل فريق أنجعَ فى علاج المشكلات السياسية والاجتماعية التى تفجرت بالثورة على عثمان بن عفان، وبعدها. . بل لقد كان المنتصر والقاتل يصلى على المهزوم والقتيل، ويوارى جثمانه التراب فى مقابر المسلمين، ويطلب له الغفران والرحمة من الله! . .

وفى القتال بين على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق. هـ ـ ٦٠ هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م]. . كاد إجماع المسلمين أن ينعقد على أن معاوية وأنصاره يمثلون «الفئة الباغية» على أمير المؤمنين على وأنصاره، وعلى أن قتال هذه الفئة الباغية واجب حتى تفىء إلى أمر الله. . ومع ذلك فهم مؤمنون مسلمون، وقتالهم سياسة بلغت مرحلة العنف المسلح، وليست دينًا؛ لأن الفريقين أبناء دين واحد، يؤمنون بإله واحد، ويشهدون بنبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، ويحتكمون إلى القرآن الكريم، ويصلون إلى ذات القبلة الواحدة. . وليس بعد شهادة على بن أبى طالب بإيمان خصومه هؤلاء شهادة تقطع بالطبيعة السياسية لهذا القتال، وتنفى عنه أية شبهة دينية. . فلقد سأل أبو سلامة الدالانى ـ وهو من أصحاب على ـ سأله عن أمر معاوية وصحبة، فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين، أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا به من هذا الدم ـ [أى دم عثمان بن عفان] ـ إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ . .

ـ نعم! . .

ـ وترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟! . .

ـ نعم! . . إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوط وأعود نفعًا.

ـ فما حالنا وحالهم إن ابتلينا بقتال غدا؟! . .

ـ إنى لأرجو أن لا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»[1]! . .

فهو قتال سياسى، بين فرقاء اختلفت وجهات نظرهم فى السياسة، والحكم على المواقف فيها داخل فى نطاق الخطأ والصواب وليس فى الكفر والإيمان. . بل إنه، بنص كلمات على بن أبى طالب، قتال بين «أهل الجنة»؟! . .

فلم يكن على يشك فى عقيدة خصومه، أو يشكك فى إيمانهم، وهو الذى يعلم براءة الإسلام من تخويل البشر سلطات دينية تحكم على العقائد والضمائر والقلوب. . ولذلك فهو يتحدث عن «إيمان» خصومه الذى لايشك فيه، فيقول: «لقد التقينا ـ [فى القتال] ـ وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدونا. والأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء»[2]! . . فليس هناك خلاف، يتقاتلون

(١) الباقلانى [التمهيد] ص ٢٣٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م.

(٢) [شرح نهج البلاغة] جـ ١٧ ص ١٤١.

عليه، فى: التوحيد، ولا النبوة، ولا دعوة الإسلام وعقائد دينه.. بل إن «الأمر»، أى السياسة، هو موطن الخلاف، ولا خلاف فيه بينهما إلا فى الموقف من قتل عثمان بن عفان، وقتلته.. فهى قضية سياسية، أثارت قتالاً سياسيّا، بين فرقاء كلهم مؤمنون ومسلمون..

وعندما يقحم نفر من «الخوارج». فى ساحة الصراع، مصطلحات: «الكفر» و«الكفار»، يصفون بها عقيدة معاوية بن أبى سفيان وأنصاره، فيبدءون موجة الانحراف الفكرى الذى أصاب الكثير من فرق الإسلام ومدارسه الفكرية، عندما جعلوا السياسة دينًا، و«الخطأ» «كفرًا»، و«الذنب» «شركًا بالله».. عندما يبدأ الخوارج ذلك الانحراف الذى يخلط أمر «الدنيا» بأمر «الدين»، يتصدى لهم الإمام على بن أبى طالب، فيعلن قوله: «إننا، والله، ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء - [الخوارج] - من التكفير والفراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة.. وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا: أننا على الحق دونهم[1] لقد أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل»[2]..

فعلى بن أبى طالب رضي الله عنه، يقرر أنه إنما يقاتل «إخوانه فى الإسلام»!.. وهم جميعًا دينهم واحد، وقبلتهم واحدة.. وليس هناك

---

(١) [التمهيد] ص ٢٣٨.

(٢) على بن أبى طالب [نهج البلاغة] ص ١٤٧ - طبعة دار الشعب القاهرة.

كفر ولا تكفير لفريق من الفرقاء، أو زعم أو ادعاء بفراقه للدين.. فقط إن الخلاف فى «الرأى» و«الأمر»، أى فى السياسة.. فالحرب - إذن - سياسية، والقتال - من ثم - سياسى، لا علاقة له بعقائد الدين وأصول الإيمان..

هكذا كانت حروب الإسلام، وهكذا كان قتال المسلمين، حماية للدعوة، وتأمينًا للدعاة، وصدًا للفتنة عن الدين، وثأرًا وطنيًا يسترجعون به وطنهم الذى أخرجهم منه المشركون.. وقتالاً قوميًا يستعيدون به وحدة الدولة التى صدع وحدتها «المرتدون» عن الوحدة القومية التى تبلورت للعرب بانتصار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية.. وحربًا لبناء الدولة، وتحرير الشرق من استعمار البيزنطيين.. وصراعًا على الخلافة أثاره الاختلاف فى «الرأى» وتعدد المناهج فى حل مشاكل الاقتصاد والاجتماع..

هكذا كانت حروب المسلمين فى صدر الإسلام، ومثلها - فى الطبيعة والأهداف - كانت كل الحروب التى نشبت بين الفرق الإسلامية على امتداد التاريخ الطويل للإسلام والمسلمين.. وكما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: «فلقد كان المشركون يبدءون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم عن دينهم، ولو لم يبدءوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول ﷺ من بلده، وفتنة المؤمنين وإيذائهم، ومنع الدعوة. كل ذلك كان كافيًا فى اعتبارهم معتدين، فقتال النبى ﷺ. كله مدافعة عن الحق وأهله، وحماية لدعوة الحق، ولذلك

كان تقديم الدعوة شرطًا لجواز القتال، وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان. . والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة أو يقتلهم أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين فالله ـ تعالى ـ لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ولا لأجل الطمع والكسب. ولقد كانت حروب الصحابة فى الصدر الأول لأجل حماية الدعوة، ومنع المسلمين من تغلب الظالمين، لا لأجل العدوان، فالروم كانوا يعتدون على حدود البلاد العربية التى دخلت حوزة الإسلام، ويؤذون من يظفرون به من المسلمين، وكان الفرس أشد إيذاء للمؤمنين منهم. وما كان بعد ذلك من الفتوحات الإسلامية اقتضته طبيعة الملك، ولم يكن كله موافقًا لأحكام الدين، فإن من طبيعة الكون أن يبسط القوى على جاره الضعيف، ولم تعرف أمة أرحم فى فتوحاتها بالضعفاء من الأمة العربية، شهد لها علماء الإفرنج بذلك[1]. . ولم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين والأشاعرة. مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة، مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٤ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

السنة، سلفيين، وأشاعرة، كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. نعم، سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج، كما وقع من القرامطة وغيرهم، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة. وأما ما كان من حروب الأمويين والهاشميين فهى حرب على الخلافة، وهى بالسياسة أشبه، بل هى أصل السياسة!.. نعم، وقعت حروب فى الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة، وهى ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية، وبين الحكومة العثمانية والوهابيين، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروبًا سياسية، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم، مع بقاء الاختلاف فى العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين[1]. لقد شهر المسلمون سيوفهم دفاعًا عن أنفسهم، وكفًا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك. ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم، فكان الجوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصالح العقل والعمل داعية الانتقال إليه»[2]!..

(١) المصدر السابق: جـ٣ ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق: جـ٣ ص ٤٦٢.

هكذا كانت طبيعة الحرب وطبيعة القتال وطبيعة الجهاد الحربى المسلح فى الإسلام . . سياسية تمامًا، ومدارها : الدنيا والدولة وشئونهما، ولا شبهة يمكن أن تلحقها بحرب العقائد الدينية التى تستهدف فرض الإيمان والإكراه فى الدين، أو قتال الآخرين لمجرد الاختلاف فى عقائد الدين .

***